موقف المسلمين من سائر الأنبياء والمرسلين

إعداد

د. ياسر بن إبراهيم السلامة

مدير عام الإدارة العامة للبحوث والدراسات

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله ، وعلى أتباعهم بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد :

فقد ظهرت في الفترة الماضية حملة مقيتة استهدفت الرسول الكريم ﷺ بالنقد والاستهزاء ، أخذت مسارات عدة كان منها ما نشر من رسوم ساخرة ، تنعته بأبشع الصفات .

وقد انبرى الغيورون لمواجهة تلك الحملة البغيضة انتصارا للنبي الكريم ﷺ ، ردا منهم على تلك الهجمات ، وانتقادا لمن تبناها ، كما استفاد بعضهم من تلك الوقائع في أخذ زمام مبادرة للتعريف بالنبي ﷺ وأخلاقه ، وتوضيحا للديانة التي جاء بها وبيانا لحقيقتها ، وقد قال سبحانه : ﴿ وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾[1] وتكمن خطورة التهجم على نبينا محمد ﷺ من حيثيتين رئيستين :

الأولى : الجرأة على شخص سلّم أعداؤه بتميزه وسمو أخلاقه ، ولعل من شواهده قصة أبي سفيان مع هرقل وما جرى فيها من سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي ﷺ ، ومما ورد فيه قول هرقل لمترجمه – مخاطبا رفقة أبي سفيان – : قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي الكذب لكذبت عنه ، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت هو فينا ذو نسب قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قلت : لا ، قال فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٩ .

سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ... ، ثم كان رأي هرقل فيما قاله أبو سفيان فقال لترجمانه : قل له إني سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها... وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ... وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ... فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1] ..

وفي وقتنا المعاصر لا زلنا بين الفينة والأخرى نجد بعض المنصفين من الباحثين والمؤرخين من يشيد بالنبي ﷺ ويعظمه وإن لم يكن من أتباعه .

والحيثية الثانية : ما تتضمنه تلك الحملة الهمجية من التعدي على أعظم وصف لمحمد ﷺ وهي النبوة والرسالة ، ومما لاشك فيه أن هناك قواسم مشتركة بين الأنبياء والرسل ، والقدح في تلك الصفات المشتركة يترتب عليه القدح فيمن قامت بهم ، واتصفوا بها ، وهذا عين الضلال والانحراف .

ومن المؤسف حقا أن تناول السائرين في ركب الحملة الساخرة لم يأخذ مسار البحث عن الحقيقة ، ولم يسلك فيه أصحابه دروب الباحثين عن الحق الذين يسعون للتعرف على النبي ﷺ ؛ وهل هو رسول حقا أم أنه مدع كاذب ! – وإن شارك في جوانب إصلاحية – ، بل الملاحظ أن منهجهم اتسم بالتسليم البليد الذي يضفي الوصف ثم

---

(١) أخرجه البخاري ح (٧) ، ومسلم ح (١٧٧٣) .

يشرع في القدح في صاحبه ويجترئ عليه ، وقياما ببعض الواجب في هذا الموضوع رغبت في بيان مسألة مهمة تتعلق بموقف المسلمين في الجملة من سائر من حظي بالاصطفاء ، وفاز باختيار الله له ليكون مبلغا لرسالة من الله لخلقه ، مع الإشارة إلى موقف بعض أهل الملل في هذا الباب .

وقد أوردت الموضوع وفق المباحث التالية :

المبحث الأول : ماهية النبوة والرسالة .

المبحث الثاني : الإيمان بالرسل ومنزلته عند المسلمين .

المبحث الثالث : خصائص الأنبياء والمرسلين .

المبحث الرابع : المفاضلة بين الأنبياء والرسل وضوابطها .

المبحث الخامس : عبودية الرسل .

المبحث السادس : الأنبياء ومنزلتهم عند أهل الكتاب .

ثم خاتمة وفيها عرض لأبرز ما في البحث من نتائج .

والله المسؤول التوفيق والسداد .

المبحث الأول

ماهية النبوة والرسالة

النبوة في أصلها اللغوي من النبأ وهو الخبر ، أو من النباوة وهي الرفعة والعلو[١] .

والنبوة في الاصطلاح : خبر خاص يكرم الله عز وجل به أحدا من عباده فيميزه عن غيره بإلقائه إليه ، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد ووعد ووعيد[٢] .

والنبي : هو الذي أوحى الله إليه وأخبره بأمره ونهيه وخبره ، ويعمل بشريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين[٣] .

وأما الرسالة فمصدر من الرِّسْل وهو الانبعاث على تؤدة ، أو من الرَّسل وهو التتابع .

فالرسول هو المبعوث ، وهو من يتابع أخبار من بعثه[٤] .

والرسول في الاصطلاح : الذي ينبئه الله ثم يأمره أن يبلغ رسالته إلى من خالف أمره ، أي إلى قوم كافرين.

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام في التفريق بين النبي والرسول واستشهد لذلك بأن نوحا عليه السلام كان أول رسول بعث إلى أهل الأرض وكان أول شرك بالله قد وقع في قومه ، وقد كان قبل نوح أنبياء كشيث وإدريس عليهما السلام وقبلهما آدم كان

---

(١) انظر : لسان العرب مادة : نبو .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ، ص ٢٧٥ .

(٣) النبوات لابن تيمية ، ٧١٥/٢ - ٧٢٢ ، وانظر أضواء البيان للشنقيطي ٧٣٥/٥ .

(٤) انظر : لسان العرب مادة : رسل .

نبيا مكلما ، وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وكان المبعوثون في هذه الفترة أنبياء فقط[١] .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى في الأمم قبل هذه الأمة أن يرسل في كل أمة نذيرا كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[٢]، ومن رحمته بخلقه أنه لا يعذب أحدا منهم إلا بعد قيام الحجة عليه كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٣] .

وأنبياء الله ورسله كثر ، منهم من نعرف اسمه وسيرته ، ومنهم من لا نعرف سوى اسمه ، ومنهم من لا نعرف من خبره شيئاً .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[٤] . وأخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده عن أبي ذر قال : قلت : يارسول الله كم المرسلون ؟ قال : " ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا" [٥] ، وفي رواية ابن حبان قال : قلت يارسول الله كم الأنبياء ؟ قال : " مائة ألف وعشرون ألفا ، قلت : يارسول الله كم الرسل من ذلك ، قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا" [٦] .

---

(١) انظر : النبوات ، ٧١٤/٢ – ٧١٥ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٣) سورة الإسراء ، آية : ١٦ .

(٤) سورة النساء ، آية : ١٦٤ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ح (٢١٦٨٢) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٢١٣) .

(٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٧٧/٢ ح (٣٦١) ، وفي سنده إبراهيم بن هشام قال عنه أبو حاتم : "كذاب" . انظر : الجرح والتعديل ١٤٢/٢ – ١٤٣ ، وللألباني رحمه الله كلام حول أصل الحديث وطرقه في السلسلة الصحيحة ، المجلد السادس ح (٢٦٦٨) .

وإذا كان أصل الفطرة متجها لتوحيد الله والإقرار بربوبيته ، والنفوس لديها غريزة كامنة تدعو للتأله والعبادة ، فإن السير في هذا السبيل لا يدرك استقلالا من العباد ، بل لابد لهم من مرشدين ودعاة يدلونهم ، ويأخذون بأيديهم ، ويبلغونهم أوامر الله ونواهيه .

قال القرطبي رحمه الله : (إن الله قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه المبينين لشرائعه وأحكامه كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنْ النَّاسِ ﴾[١] وقال : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[٢] ، وأمر بطاعتهم في كل ما جاؤوا به ، وحث على طاعتهم والتمسك بما أمروا به فإن فيه الهدى وقد حصل العلم واليقين وإجماع السلف على ذلك)[٣] .

وحاجة العباد للرسل أشد من حاجتهم لسائر أمورهم الدنيوية ، فبدعوة الرسل يدرك العباد مرادهم ، وعن طريق الرسل يستطيع الصادقون القيام بالعبودية لله كما أمروا ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾[٤] .

قال ابن القيم رحمه الله : (لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال ، فالضرورة

---

(١) سورة الحج ، آية : ٧٥ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ .

(٣) نقله ابن حجر في الفتح ١/٢٢١ .

(٤) سورة الذاريات ، آية : ٥٦ .

إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى نورها ، والروح إلى حياتها ، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ، وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة ، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال ، بل أعظم ، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي ، وما لجرح بميت إيلام)[1] .

---

(١) زاد المعاد ٦٩/١ .

المبحث الثاني

الإيمان بالرسل ومنزلته عند المسلمين

الإيمان بالرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان الستة التي لا يتم إيمان عبد إلا بها .

والأدلة الشرعية من الكتاب والسنة متواترة على تأكيد ذلك ، بل إن الله سبحانه قرن الإيمان بالرسل بالإيمان به فقال : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾[١] .

قال الإمام البيهقي في عرضه لشعب الإيمان : (الثاني من شعب الإيمان وهو الإيمان برسل الله صلوات الله وسلامه عليهم عامة اعتقادا وإقرارا)[٢] .

وقال عند قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾[٣] (في هذه الآية أن الله عز وجل جعل الكفر ببعض رسله كفرا بجميعهم ثم جعل الكفر بجميعهم كفرا به ، وقال بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ الآية ، فثبت أن حسن المآب إنما يكون لمن لم يفرق بين رسل الله عز وجل وآمن بجماعتهم ، وقد روينا في حديث ابن عمر عن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ حين سئل عن الإيمان فقال : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر كله خيره وشره")[٤] .

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .

(٢) شعب الإيمان ١٤٥/١ .

(٣) سورة النساء ، آية : ٣٦ .

(٤) شعب الإيمان للبيهقي ١٤٥/١ ، وحديث عمر أخرجه مسلم ح (٨) .

والإيمان برسل الله يتضمن أمورا عدة :

الأول : الإيمان بأنهم مرسلون من عند الله حقا ، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع ، كما قال تعالى : ﴿ **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[١] فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل ، مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه .

الثاني : الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه مثل محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام ، وغيرهم من الأنبياء والرسل ممن ورد ذكرهم في الكتاب والسنة .

وأما من لم يعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالا ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾[٢] .

الثالث : تصديق ما صح من أخبارهم .

الرابع : العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو خاتمهم محمد ﷺ ، المرسل لجميع الناس ، قال سبحانه : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾[٣][٤] .

أما بقية الأنبياء فنؤمن بأنهم أتوا إلى أقوامهم بشرائع من عند الله ، خاصة بتلك الأمم ، دون أن يترتب على ذلك العمل بشيء من رسالاتهم مما لم يأت في رسالة محمد ﷺ .

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ١٠٥ .

(٢) سورة غافر ، آية : ٧٨ .

(٣) سورة النساء ، آية : ٦٥ .

(٤) انظر : شرح أصول الإيمان لابن عثيمين ، ص ٣٤ - ٣٥.

قال الإمام البيهقي رحمه الله : (الإيمان بمن عدا نبينا ﷺ هو الإيمان بأنهم كانوا مرسلين إلى الذين ذكروا أنهم رسل الله إليهم ، وكانوا في ذلك صادقين محقين)[١] .

وقال الإمام الطبري في شرحه لقول الله تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾[٢] ، (قوله : وما أوتي موسى وعيسى يعني وآمنا أيضا بالتوراة التي آتاها الله موسى وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى والكتب التي آتى النبيين كلهم وأقررنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور من عند الله ، وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى يصدق بعضهم بعضا على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله والعمل بطاعته)[٣] .

ومما لاشك فيه أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم متفقون في الدعوة لتوحيد الله سبحانه ، وإن تفاوتت شرائعهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[٤] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[٥] ، ويؤكد النبي ﷺ هذا المعنى بقوله : "الأنبياء إخوة من علات ، أبوهم واحد وأمهاتهم شتى "[٦] . فالتفاوت بين الرسل فيما يتعلق بالرسالات التي يبلغونها ، كالتفاوت بين الإخوة غير الأشقاء ، يتفقون في الأب

---

(١) شعب الإيمان ١/١٤٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٣٦ .

(٣) تفسير الطبري ١/١٠٥ .

(٤) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .

(٥) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٦) أخرجه البخاري ح (٣٢٥٩) ، ومسلم ح (٢٣٦٥) .

وأمهاتهم متعددات .

يقول ابن تيمية رحمه الله : (الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم ، كما أخبر الله بنحو ذلك في غير موضع من كتابه ، فأخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام أنهم كانوا مسلمين وكذلك عن أتباع موسى وعيسى عليهما السلام ، وغيرهم ، والإسلام هو أن يُستسلم لله لا لغيره فيعبد الله ولا يشرك به شيئا ويتوكل عليه وحده ويرجوه ويخافه ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقا كحبه لله ، بل يحب لله ويبغض لله ، ويوالي لله ويعادى لله ، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلما ، ومن عبد مع الله غيره لم يكن مسلما ، وإنما تكون عبادته بطاعته ، وهو طاعة رسله ، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ، فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام)[1] .

وما أود أن أختم به هذا المبحث إشارة إلى موقف المسلمين ممن يجترئ على أنبياء الله ، ويقدح فيهم أو يسبهم ، وهذا في الحقيقة متضمن التكذيب بهم وعدم الإيمان برسالاتهم .

إذ قد أجمع علماء المسلمين على تكفير من سب أحدا من أنبياء الله أو طعن فيهم .

يقول القاضي عياض : (من استخف بمحمد ﷺ أو بأحد من الأنبياء أو أزرى عليهم أو آذاهم ... فهو كافر بالإجماع) .

ويقول : (حكم من سب سائر أنبياء الله تعالى ، وملائكته واستخف بهم أو كذبهم فيما أتوا به ، أو أنكرهم وجحدهم حكم نبينا ﷺ على مساق ما قدمناه قال

---

(١) النبوات ١/٤١٦ – ٤١٨ .

اللـــه تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُـلِهِ ﴾ الآية ...

قال مالك في كتاب ابن حبيب ومحمد ، وقال ابن القاسم وابن الماجشون وابن عبدالحكـم وأصبغ وسحنون فيمن شتم الأنبياء أو أحدا منهم أو تنقصه قتل ولم يُستتب ، ومن سبهم من أهل الذمة قتل إلا أن يسلم)[١] .

وقال شيخ الإسلام : (الحكم في سب سائر الأنبياء كالحكم في سب نبينا ، فمن سب نبيا مسمى باسمه من الأنبياء المعروفين كالمذكورين في القرآن أو موصوفا بالنبوة مثل ما يذكر حديثا أن نبيا فعل كذا أو قال كذا فيسب ذلك القائل أو الفاعل مع العلم بأنه نبي وإن لم يعلم من هو أو يسب نوع الأنبياء على الإطلاق فالحكم في هذا كما تقدم[٢] لأن الإيمان بهم واجب عموما وواجب الإيمان خصوصا بمن قصه الله علينا في كتابه وسبهم كفر وردة إن كان من مسلم ومحاربة إن كان من ذمي)[٣] .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/٣٠٢ .

(٢) أن هذا كفر وردة تستحق القتل في الأصل .

(٣) الصارم المسلول ٢/١٠٤٩ .

المبحث الثالث

خصائص الأنبياء والمرسلين

النبوة والرسالة وظائف يمن الله بها على من يشاء من عباده ، ويختار لها أماثل خلقه ، ممن تكاملت وتوافرت فيهم الصفات والأخلاق الحميدة ، ولا تدرك تلك المنزلة والمرتبة بمدارسة أو مثافنة ، وإنما هي محض اصطفاء واختيار من الله سبحانه[١] .

وقد جعل الله لأنبيائه من الخصائص والمزايا ما يفوق من عداهم ، مما يرفع مكانتهم ويعلي شأنهم ويثبت نبوتهم ، فهم غاية في الصدق والأمانة ، سالمون من العيوب المنفرة ، مؤيدون بما يصدقهم في أنهم مرسلون من عند الله بالآيات والمعجزات ، معصومون من الوقوع في الفواحش والموبقات ، وسوف أحصر الكلام فيما يتعلق بهذا الباب في مسألتين منه :

الأولى : المعجزات .

الثانية : العصمة[٢] .

المعجزات :

معجزات الرسل هي الآيات التي أجراها الله على أيديهم تصديقا لهم ، وبرهانا على الحق الذي معهم ، والوصف الوارد في الكتاب والسنة لهذا المفهوم (الآيات والبينات والبراهين) وأما المعجزات فهي تسمية اصطلاحية بالنظر لاعتبار عجز المخلوقين عن الإتيان بمثل ما يأتي به الأنبياء والمرسلون من الآيات والبراهين .

---

(١) زاد المعاد ٦٩/١ .

(٢) وهذا لأهمية هاتين المسألتين ومكانتهما ، فالأولى طريق رئيس في إثبات النبوة ، والثانية يترتب عليها الحكم بالنزاهة والأمانة في التبليغ والسلامة من الزلات .

ويعرف بعض العلماء المعجزة بأنها أمر خارق للعادة داع للخير والسعادة مقرون بدعوى النبوة ، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله[١] .

وتأييد الله سبحانه لرسله بالآيات من كمال عدله ورحمته بعباده ، إذ لم يكلهم إلى النظر العقلي المجرد في النظر في الحق ومن ثم قبوله (وإن كان في هذا كفاية أحيانا) بل جعل على الحق برهانا وأيد رسله بتلك الآيات تصديقا لهم وتوثيقا وإقامة للحجة وإعذارا ، قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[٢] .

وقال عليه الصلاة والسلام : " ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون

---

(١) انظر : التعريفات ٢٨٢/١ ؛ التوقيف على مهمات التعريف ٦٦٥/١ . يقول ابن تيمية رحمه الله : آيات الأنبياء وبراهينهم وهي الأدلة والعلامات المستلزمة لصدقهم ... ، وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف (خرق العادة) بل ولا ذكر خرق العادة ولا لفظ المعجز وإنما فيه آيات وبراهين (انظر : النبوات ٢١٣/١ – ٢١٥) .
ويقول : هذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات ، ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجودا في الكتاب والسنة ، وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ... ﴾ القصص : ٣٢ ، في العصا واليد ، وقال تعالى في حق محمد ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ النساء : ١٧٤ . (انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٤١٢/٥ – ٤١٩) .

(٢) سورة الحديد ، آية : ٢٥ .

أكثرهم تابعا يوم القيامة"[١] .

ومن تمام حكمة الرب سبحانه أن الآيات التي يؤيد بها رسله تكون في أبواب برع فيها المُنْذَرون ، أبلغ في التحدي وأقطع للشك والريبة ، إذ الإتيان بشيء تجهله أمة من الأمم ولا تدرك أبعاده فيه إغراب بحد ذاته وإن كان أمرا مألوفا لغيرهم ، ومعيار الإعجاز فيه غير دقيق نظرا لخفاء الأمر عنهم بالكلية .

أما آيات الله سبحانه التي نصر بها رسله فكانت في الجملة من جنس ما تتعاطاه الأمم والمجتمعات ، ولكنها خارقة في حقيقتها غير مقدورة للبشر استقلالا ، فموسى عليه السلام أرسل في قوم كان السحر بينهم شائعا فأعطاه الله الآية في العصا التي كان يحملها ، وفي يده التي كانت تنقلب بيضاء من غير مرض أو عاهة ، فلما بلغ رسالة الله وعانده فرعون وانتهى الأمر إلى المبارزة والنزال مع السحرة وعرضوا ما لديهم من حيل وخدع وأنواع من السحر تكالبوا عليها ؛ أوحى الله سبحانه إلى موسى أن يلقي عصاه فانقلبت حية حقيقية تسعى ، وطفقت تلتهم ما رمى به السحرة من حبال وعصي .

فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أن تلك العصا ليست من الضروب التي يتعاطونها ، أو من جنس السحر الذي يصنعونه ، ولكنه أمر خارق خارج قدراتهم ووسائلهم ، فكان أن أذعنوا وأقروا لموسى بصدق دعوته وآمنوا برسالته .

وكذا الحال في عيسى عليه الصلاة والسلام أرسل في بني إسرائيل وكان الطب فيهم شائعا ، فأيده الله بآيات من هذا الباب ، فطفق يداوي ويعالج أمراضا استعصت عليهم وعجزوا عن إدراك أدويتها من البرص والعمى الأصلي ، بل وإحياء الموتى ، كل

---

(١) أخرجه البخاري ح (٤٦٩٦) ، ومسلم ح (١٥٢) .

هذا بإذن الله سبحانه .

ولم يكن يتعاطى في هذا كله دواء أو وسيلة علاجية سوى سؤال الله سبحانه أن يشفي المصاب وأن يبرئ الأكمه وأن يحيي الميت[١] .

وأما محمد ﷺ فبعث في قوم أهل فصاحة وبيان ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وأنذرهم بالقرآن (الذي هو كلام الله سبحانه) وتحداهم أن يأتوا بمثله ، بل تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله ، ولم يقف التحدي عند هذا بل تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وهذا التحدي يصدق على سائر سور القرآن والتي منها سورة قصيرة لا تتجاوز بضعة أسطر .

ومع هذا فقد عجزوا عن الوقوف في صف التحدي ، وقرر الله سبحانه عجز خلقه عن ذلك فقال : ﴿ **قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾[٢][٣] .

العصمة :

العصمة في أصلها ترجع إلى الإمساك والمنع والملازمة ، وعصمة الله عبده : أن يعصمه مما يوبقه ، والعرب تقول : عصمه الطعام : منعه من الجوع ، ويقال اعتصم فلان بالله إذا امتنع به[٤] .

---

(١) انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢٧٠ – ٢٧١ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٨٨ .

(٣) انظر كلام القاضي رحمه الله حول القرآن الكريم وأوجه إعجازه في كتابه الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٢٥٨ – ٢٧٦.

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ولسان العرب مادة : عصم .

والمراد بعصمة الله لأنبيائه حفظه لهم من الوقوع في الخطأ والكذب فيما يتعلق بالتشريع ، إذ هم أمناء في خبرهم عن الله وشرعه .

يقول شيخ الإسلام : (الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة ، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه ... ، وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة فإن النبي هو المنبأ عن الله ، والرسول هو الذي أرسله الله تعالى ، وكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين)[١] .

ونقل القاضي عياض رحمه الله إجماع العلماء على عصمة الأنبياء فيما يتعلق بالتشريع ، ومما قاله : (أجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به لا قصدا ولا عمدا ولا سهوا ولا غلطا)[٢] .

ويقول الشيخ عبدالعزيز بن حمد بن معمر : (أجمع المسلمون على أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله وفي تبليغ رسالاته لا خلاف بينهم في ذلك)[٣] .

وأما ما يتعلق بالذنوب فقد أجمع علماء الإسلام على أن الأنبياء معصومون من الوقوع في كبائر الذنوب ، وممن حكى الإجماع على ذلك المازري ، والقاضي عياض[٤] .

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٢٨٩ – ٢٩٠ .

(٢) انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/١٢٣ وما بعدها .

(٣) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب ، ص ١١١ .

(٤) انظر منهاج السنة ٢/٤٢٦ ، شرح مسلم للمنذري ٧/١٥٨ ، الشفا ٢/١٣٢ – ١٣٧ .

أما صغائر الذنوب فالسلف على أن الأنبياء غير معصومين من الوقوع فيها ، ولكنهم يتوبون منها ولا يقرون عليها ، قال شيخ الإسلام : (عامة ما ينقل عن جمهور العلماء أنهم غير معصومين عن الصغائر ولا يقرون عليها ولا يقولون إنها لا تقع بحال) .

وقال : (الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الإقرار على الذنوب كبارها[1] وصغارها وهم بما أخبر الله به عنهم من التوبة يرفع درجاتهم ويعظم حسناتهم فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وليست التوبة نقصا بل هي من أفضل الكمالات وهي واجبة على الخلق كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ، لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[2] ، فغاية كل مؤمن هي التوبة ثم التوبة تتنوع كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

والله تعالى قد أخبر عن عامة الأنبياء بالتوبة والاستغفار ، عن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وغيرهم فقال آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾[3] ، وقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾[4] ، وقال الخليل : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾[5] ، وقال هو وإسماعيل : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ

---

(١) إشارة ابن تيمية رحمه الله لكبائر الذنوب لا يفهم منها دلالة ضمنية بوقوعها منهم ، إذ المسألة محل إجماع كما في أول المبحث ، ولكن للتأكيد على أن الإقرار لا يكون للأنبياء على صغائر الذنوب فضلا عن كبارها .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيات : ٧٢ – ٧٣ .

(٣) سورة الأعراف ، آية : ٢٣ .

(٤) سورة هود ، آية : ٤٧ .

(٥) سورة إبراهيم ، آية : ٤١ .

وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾)[1][2] .

ويقول الشيخ عبدالعزيز بن حمد بن معمر : (الذي عليه الجمهور من المتقدمين والمتأخرين أنهم معصومون أيضا من الإقرار على الذنوب مطلقاً)[3] .

ويمكن تلخيص موقف جمهور أهل السنة في باب العصمة فيما يلي :

١- الأنبياء معصومون في باب التبليغ مطلقا ، ولا يمكن بحال أن يقع منهم تشريع لشيء لم يؤمروا به .

٢- الأنبياء معصومون من الوقوع في كبائر الذنوب مطلقا ، بينما صغائر الذنوب قد تقع منهم .

٣- الذي عليه جمهور العلماء وهو ما تدل عليه النصوص الشرعية أن الأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب مطلقا .

٤- وقوع الصغائر من الأنبياء لا يقدح فيهم ولا ينقص من قدرهم ومكانتهم ، إذ هي متبوعة بالتوبة ، وقد غفر الله لهم ما وقع منهم ، وما يحصل لهم من الندم والاستغفار سبب في رفعة درجاتهم وعلو منزلتهم بعد الذنب .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ١٢٨ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٥١/١٥ .

(٣) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب ، ص ١١١ .

المبحث الرابع

المفاضلة بين الأنبياء والرسل وضوابطها

التفاوت بين خلق الله في الفضائل والصفات وفي الإدراك والقدرات أمر ظاهر يراه المتأمل واقعا ، وتؤكده النصوص الشرعية وتقرره ، يقول الله سبحانه : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾[1] .

وذكر سبحانه علة أخرى لهذا التفاوت ، وهي تحقق الابتلاء للعبد بين النعماء والضراء ، وما يحب وما يكره ، يقول سبحانه : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾[2] .

وفيما يتعلق بأنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قرر الله سبحانه تفاضلهم ، فمع أنهم قد أدركوا من الفضل أعلى مراتبه إلا أنهم أيضا متفاوتون فيما من الله به على بعضهم من فضائل وخصائص ، يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾[3] .

ومع أن هذا مقرر وظاهر إلا أن المفاضلة مرفوضة منهي عنها إذا تضمنت لمزا أو قدحا أو تنقيصا من قدر المفضول .

قال البيهقي رحمه الله : (قول الله عز وجل : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى

---

(١) سورة الزخرف ، آية : ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٦٥ .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٥٣ .

﴿بَعْضٍ﴾ يدل على تفضيل بعضهم على بعض ، وقول النبي ﷺ : " لا تفضلوا بين أنبياء الله "[١] ، وقوله : " لا تخيروا بين أنبياء الله "[٢] إنما هو في محاولة أهل الكتاب على معنى الإزراء ببعضهم فإنه ربما أدى ذلك إلى فساد الاعتقاد فيهم والإقلال الواجب من حقوقهم)[٣] .

ونقل القرطبي رحمه الله اختلاف العلماء في تأويل الجمع بين النهي وتقرير التفاضل ، وأشار إلى أقوالهم في هذا ومما ذكره عن بعضهم قولهم : (إنما نهى عن الخوض في ذلك ؛ لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال وذلك يؤدي إلى أن يذكر منهم ما لا ينبغي أن يذكر ويقل احترامهم عند المماراة . قال شيخنا : فلا يقال : النبي أفضل من الأنبياء كلهم ولا من فلان ولا خير ، كما هو ظاهر النهي لما يتوهم من النقص في المفضول ؛ لأن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى ، فإن الله تعالى أخبر بأن الرسل متفاضلون ، فلا تقول : نبينا خير من الأنبياء ولا من فلان النبي اجتنابا لما نهي عنه وتأدبا به وعملا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل ، والله بحقائق الأمور عليم .

قلت : وأحسن من هذا قول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات ، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها ، ولذلك منهم رسل وأولو عزم ، ومنهم من اتخذ خليلا ، ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا

---

(١) أخرجه البخاري ح (٣٢٣٣) ، ومسلم ح (٢٣٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري ح (٦٥١٨) ، ومسلم ح (٢٣٧٤) بلفظ : " لا تخيروا بين الأنبياء " .

(٣) شعب الإيمان ١٨٣/٢ .

بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾[١] ، وقال : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[٢] . قلت : وهذا قول حسن ، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل وأعطي من الوسائل)[٣] .

ومما نقله الحافظ ابن حجر حول قوله ﷺ : " لا تفضلوا بين أنبياء الله : (قال العلماء في نهيه عن التفضيل بين الأنبياء : إنما نهى عن ذلك من يقوله برأيه لا من يقوله بدليل ، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول ، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع ، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة ، فالإمام مثلا إذا قلنا إنه أفضل من المؤذن لا يستلزم نقص فضيلة المؤذن بالنسبة إلى الأذان ، وقيل النهي عن التفضيل إنما هو في حق النبوة نفسها كقوله تعالى : ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[٤] ، ولم ينه عن تفضيل الذوات على بعض لقوله : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[٥] .

وقال الحليمي : الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر ، فأما إذا كان التخيير مستندا إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي)[٦] .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٥٥ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٥٣ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٦٢/٣ – ٢٦٣ .

(٤) سورة البقرة ، آية : ٢٨٥ .

(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٥٣ .

(٦) الفتح ٤٤٤/٦ .

ويتضح مما سبق أن الأصل عدم التفريق بين أنبياء الله ورسله من جهة النبوة ذاتها كما قال سبحانه : ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾[١] .

وقد اختص الله بعض أنبيائه ورسله ببعض المزايا وفضل بعضهم على بعض في أحوال ومقامات فضلا منه سبحانه ومِنّة ، وإيراد ما يثبت من الفضائل لبعضهم أمر محمود لا حرج فيه ، ويجب أن يراعى في التفضيل بينهم ألا يتضمن قدحا في المفضول أو انتقاصا له ، ويتأكد هذا حال مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم .

ويؤكده قصة الحديث الذي ورد فيه النهي عن التفضيل ، الذي أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ قال : بينما يهودي يعرض سلعة له أعطي بها شيئا كرهه أو لم يرضه ، قال لا والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر قال فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه قال : تقول والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، قال فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم إن لي ذمة وعهدا ، وقال : فلان لطم وجهي فقال رسول الله ﷺ : " لم لطمت وجهه " ؟ قال : قال : يارسول الله والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر وأنت بين أظهرنا قال : فغضب رسول الله ﷺ حتى عرف الغضب في وجهه ثم قال : " لا تفضلوا بين أنبياء الله فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله قال ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث أو في أول من بعث فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بعث قبلي ، ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى عليه السلام "[٢] .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٨٥ .

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٢٣٣) ، ومسلم ح (٢٣٧٣) .

المبحث الخامس

عبودية الرسل

أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين خلق من خلقه صفاتهم كغيرهم من البشر ، ويعترضهم ما يعترض غيرهم من المخلوقين ، ولدوا وعاشوا وماتوا كغيرهم من بني آدم في الجملة[١] ، وما من شيء يختلفون فيه عمن سواهم باستثناء ما يتعلق بخصائص النبوة والرسالة التي أتى من النصوص ما يثبتها ، ومنها ما سبق إيراده .

فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يخبر الله عنه ، في وصفه لربه : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾[٢] ، وقال الله في حق عيسى وأمه : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ ﴾[٣] .

وهذا محمد ﷺ أخبر الله عنه أنه كان يقول لقومه : ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٤] .

وقال الله عز وجل له : ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا

---

(١) لا يخفى ما يتعلق بنبي الله عيسى عليه السلام في ولادته وفي رفع الله له إلى السماء ، ومع ذلك فهو كغيره سيدركه الموت في آخر الدنيا بعدما ينزل إلى الأرض .

(٢) سورة الشعراء ، آية : ٧٩ – ٨١ .

(٣) سورة المائدة ، آية : ٧٥ .

(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٨٨ .

أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾[١] .

وقال ﷺ منبها أصحابه لما سهى في الصلاة : " إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني "[٢] .

وفيما أنزله الله من كتابه من خبر جماعة من الأنبياء قوله سبحانه : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[٣] ، وبين الله سبحانه أن الرسل بشر كغيرهم فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾[٤] ، وقال في بيان استنكار المشركين تناول الرسول ﷺ للطعام وسيره في الأسواق : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾[٥] ، فقال سبحانه ردا عليهم : ﴿ وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾[٦] .

فلا يسوغ أن يبالغ في أنبياء الله ورسله أو أن يغالى فيهم فيمنحوا ما لايستحقونه أو يوصفوا بما ليس فيهم ، فإنما هم رسل لا يكذبون وعبيد لا يعبدون وإنما يطاعون ويُكْرَمون ويُتَّبعون .

وقد نهى النبي ﷺ عن الغلو فيه ، فقال : " لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله "[٧] .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٥٠ .

(٢) أخرجه البخاري ح (٣٩٢) ، ومسلم ح (٥٧٢) .

(٣) سورة إبراهيم ، آية : ١١ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ٣٨ .

(٥) سورة الفرقان ، آية : ٧ .

(٦) سورة الفرقان ، آية : ٢٠ .

(٧) أخرجه البخاري ح (٣٢٦١) .

ولما خاف من بعض عبارات من مدحه الدخول في الغلو في هذا الباب قال : " يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستجرينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبدالله ورسول الله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله عز وجل "[1] .

وموقف المسلمين النابع من نصوص الوحيين تجاه أنبياء الله ورسله آمن به منصفو أهل الكتاب وعلماؤهم المحايدون ، وأقروا بتلك النظرة المتوازنة التي تتوافق مع النظر العقلي السليم .

ومما يشهد لهذا الأحداث التي جرت في هجرة جماعة من أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة فيما روته أم سلمة وغيرها من أخبار ما جرى لهم عند النجاشي لما أرسلت قريش عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة لإقناع النجاشي بإعادة من هاجر إليه من المسلمين ، ولما انقطعت بعمرو بن العاص السبل ولم يستطع ثني النجاشي عن استقبال المسلمين في أرضه ، قال عمرو لصاحبه : والله لآتينه غدا بما أستأصل به خضراءهم ، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يَعْبُدُ – عيسى بن مريم – عبد ، فقال له عبدالله بن أبي ربيعة : لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحما ولهم حقا ، فقال : والله لأفعلن ، فلما كان الغد دخل عليه فقال : أيها الملك إنهم يقولون في عيسى قولا عظيما فأرسل إليهم فسلهم عنه ، فبعث والله إليهم ولم ينزل بنا مثلها ، فقال بعضنا لبعض : ماذا تقولون له في عيسى إن هو سألكم عنه ؟ فقالوا : نقول والله الذي قاله الله فيه ، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه ، فدخلوا عليه وعنده بطارقته ، فقال : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال له جعفر : نقول : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فدلى له النجاشي يده إلى الأرض فأخذ عودا

---

(١) أخرجه أحمد ح (١٣٥٥٣) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ح (٤٤١٨) .

بين أصبعيه فقال : ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العويد ، فتناخرت بطارقته فقال : وإن تناخرتم والله ، اذهبوا فأنتم شيوم في الأرض – والشيوم : الآمنون في الأرض – من سبكم غرم من سبكم غرم من سبكم غرم ، ثلاثا ، ما أحب أن لي دبرا وأني آذيت رجلا منكم ، والدبر بلسانهم الذهب[1] .

---

(١) انظر : دلائل النبوة ٢٩٩/٢ ، حلية الأولياء ١١٤/١ ، سيرة ابن هشام ٣٣٦/١ ، البداية والنهاية ١٦٥/٤ .

المبحث السادس

الأنبياء ومنزلتهم عند أهل الكتاب

إن المرء ليتألم ويعجب حينما يرى التجاوزات التي ينتهكها بعض المخذولين في حق نبينا محمد ﷺ ، ويتساءل المرء ما موقف أولئك ممن يفترض أن يعظموهم من أنبيائهم ورسلهم ، والحقيقة أن نسبة ليست بالقليلة منهم لا ينتمون إلى دين ولا يؤمنون بحقائق غيبية بل هم سائرون في دروب من الإلحاد ، المغرق في المادية ، والمحرك لهم في الغالب تيارات براجماتية نفعية[1] أهدافها منصبة على المنافع المنظورة .

ومما لا جدال فيه أن طوائف ممن يطعنون في نبينا محمد ﷺ لديهم تدين وانتماء ، ومن أولئك من ينتمون إلى اليهودية أو النصرانية .

ولعل مما يسهم في تجلية المسألة ويوضح مقدار الانحراف الذي يعيشونه ، بيان نظرتهم للأنبياء من خلال ما نقرؤه من نصوص التوراة والإنجيل التي بأيديهم[2] .

ففي التوراة نجد عددا محدودا من النصوص فيها ثناء على بعض الأنبياء وورد وصف نوح في التوراة بما نصه : (كان نوح رجلا بارا كاملا في أجياله ، وسار نوح

---

(١) المذهب البراجماتي أو الذرائعي مذهب فلسفي نفعي يرى أن الحقيقة توجد من خلال الواقع العملي والتجربة الإنسانية ، وصدق القضايا يكمن في فائدتها للناس والأفكار لا تعدو أن تكون ذرائع ، وأصدقها أنفعها واقعا بغض النظر عن المحتوى الفكري أو الأخلاقي أو العقائدي ، والعقل لم يخلق ليفسر الغيب المجهول ولذا فالاعتقادات الدينية لا تخضع للبينات العقلية .

انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٨٣٢/٢ .

(٢) من المسلم به أن ما بأيدي أهل الكتاب من التوراة والإنجيل لا تخلو من تحريف ، بل إن التحريف سمة ظاهرة فيهما ، أخبرنا الله سبحانه عنه بقوله : ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ ، ولعل ما أوردته من نصوص يوضح جانبا من التحريف الذي تعرضت له كتبهم .

مع الله "[١] .

وورد في التوراة أن الله قال لإبراهيم في المنام : " يا إبرام أنا ترس لك ، أجرك كثير جدا ")[٢] .

وعن داود ورد في التوراة : (أنا أكون له أبا وهو يكون لي ابنا)[٣] .

ولكن يتلاشى هذا الثناء في بحر من القدح والتجني الذي نجده من نصوص ينسبها اليهود للتوراة ، ويتداولونها ويرددونها .

ففي نوح عليه السلام ورد في التوراة : (وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر وتعرى داخل خبائه ، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجا ، فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ، ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ، ووجهاهما إلى الوراء ، فلم يبصرا عورة أبيهما ، فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير ، فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته ، وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم ، ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام ، وليكن كنعان عبدا لهم)[٤] .

وأما إبراهيم عليه السلام فورد في التوراة نسبة كلام له يخاطب فيه ربه بما لا يسوغ أن يكون بين الأنداد المخلوقين ، فكيف بنبي يخاطب رب العالمين ، وذاك

---

(١) سفر التكوين ٩/٦ .

(٢) سفر التكوين ١/١٥ .

(٣) سفر صموئيل الثاني ١٤/٧ .

(٤) سفر التكوين ٢٥/٩ – ٢٦ ، ويظهر من خلال هذا النص منحى التحريف من خلال القدح في كنعان الذي يعد أبا للفلسطينيين ، والذي ربما لم يولد آنذاك ، ومن خلال السياق أيضا يظهر وجه استغراب بالنظر إلى أن حاما هو الذي أبصر عورة أبيه فلم يلعن نوح ابنه كنعان ! .

اعتراض منه على إهلاك قوم لوط ، حيث ورد فيها : (أفتهلك البار مع الأثيم عسى أن يكون خمسون بارا في المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين بارا الذين فيه ، حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم ، فيكون البار كالأثيم حاشا لك ، أديَّان كل الأرض لا يصنع عدلا)"[١] .

وأما لوط عليه السلام الذي حارب الانحراف والفواحش في قومه فقد زعمت اليهود أنه شرب الخمر وضاجع ابنتيه ، فولد موآب وابن عمي (أعداء بني إسرائيل) .

ففي التوراة : (وصعد لوط من صوغر ، وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن في صوغر ، فسكن في المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة أهل الأرض ، هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا ، فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة : إني قد اضطجعت البارحة مع أبي نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة أيضا ، وقامت الصغيرة ، واضطجعت معه ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم ، والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمي ، وهو أبو بني عمون إلى اليوم)[٢] .

وأما داود عليه السلام فزعم اليهود في التوراة التي بأيديهم أنه زنى بامرأة أحد جنوده – أوريا الحثى – فحملت المرأة منه ، فلما علم داود بذلك أمر أن يجعل زوج المرأة

---

(١) سفر التكوين ١٨/٢٣ .

(٢) سفر التكوين ١٩/٣٠ – ٣٧ .

في وجه الحرب الشديدة وأن يترك حتى يموت ، وبعد موته تزوجها داود وأنجب منها سليمان عليه السلام[١] .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل ينسب اليهود في التوراة لبعض الأنبياء ما يناقض أصل ما بعثوا به وأمروا بالدعوة إليه وهو توحيد الله تعالى ، فقد ورد في التوراة : (لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ... فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها ... فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا ، فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل)[٢] .

وما سبق إيراده بعض من قدحهم في أنبياء الله وله نظائر عديدة لا تقتصر على أنبياء دون آخرين بل القدح قد طال معظمهم .

وأما ما يتعلق بالنصارى فقراءة ما بأيديهم من الأناجيل يتضح من خلالها أنهم يحصرون العصمة في المسيح عليه السلام – الذي يرفعونه إلى مرتبة الألوهية – أما من عداه فالخطأ من سيماهم وسجاياهم ، ولا يخرج من هذا الحكم الأنبياء والمرسلون .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : (أهل الكتاب لا يقولون بهذه العصمة وكتبهم المقدسة ترمي بعض كبار الأنبياء بكبار الفواحش المنافية لحسن الأسوة بل المجرئة على الشرور والمفاسد ، والنصارى منهم يجعلون معاصي الأنبياء دليلا على عقيدتهم ، وهي أن المسيح هو المعصوم وحده لأنه رب وإله ، ولأنه هو المخلص للناس من العقاب على الخطيئة اللازمة لكل ذرية آدم بالوراثة له ، وأنه لا شفيع ولا مخلص لهم غيره ، لأن المخطيء لا يخلص المخطئين وهو منهم ، وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء

---

(١) سفر صموئيل الثاني ١١/٢ – ٢٦ .

(٢) سفر الخروج ٣٢/١ .

وكتبهم وللعقل ، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها) [١] .

ولا تقف المسألة عند وصم أنبياء الله ورسله بأقبح الأوصاف ، ودعوى ارتكابهم لكبائر الذنوب ، بل تجاوزوا ذلك بالاعتداء على أنبياء الله ورسله بالضرب والقتل ونحوهما .

ومواقف أهل الكتاب من الأنبياء والرسل وردت الإشارة إليها في القرآن الكريم في مواضع منه ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ، وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [٢] .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنْ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٣] .

---

(١) الوحي المحمدي ، ص ٢٨ .

(٢) سورة النساء ، آية : ١٥٥- ١٥٧ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ٢١ .

الخاتمة

مما سبق عرضه حول موقف المسلمين من سائر الأنبياء والمرسلين يمكن تسطير النتائج التالية :

١- وظيفة الأنبياء والرسل تبليغ شرع الله ودينه لخلقه ، ووساطتهم بين الخالق والمخلوق وساطة في البلاغ والإنذار .

٢- لا يتم الإيمان لعبد إلا بالإيمان برسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

٣- أيد الله سبحانه أنبياءه ورسله بالآيات والبراهين (المعجزات) التي تدل على صدقهم ، وكل مطلع عليها يسلم بها اضطراراً واستدلالا .

٤- الأنبياء والرسل أكمل الخلق على الإطلاق ، قد عصمهم الله فيما يبلغونه من دينه وأمره ونهيه ، كما أنهم معصومون من الوقوع في الفواحش والكبائر ، وهم أقوى الناس امتثالا لأوامر الله وأشدهم لله خشية ، وأعظمهم له سبحانه عبودية .

٥- مع مكانة الأنبياء ورفعة منزلتهم إلا أنهم متفاضلون ، فمنهم رسل ، ومن الرسل أولو عزم .. ، ومن الوفاء بحق المفضلين عرض فضائلهم .

٦- لا يجوز بحال التفضيل بين الأنبياء والرسل بما يتضمن القدح في المفضول أو التقليل من منزلته .

٧- لأهل الكتاب سوابق في التعدي على الأنبياء والقدح فيهم قولا وعملا ، مع محاولة إضفاء قداسة على تلك الأكاذيب بنسبتها للوحي المنزل .

* * * *